



الخميس 11 سبتمبر 2014 12:09 م

بقلم: أحمد الحارون

.....

دولابْ جدتي... لمن لا يعرفه من جيل (الأي فون) كان بعض الرفوف من الخشب، يتجاوز طوله المتر بقليل، وعرضه يقارب طوله، يبدو أنه كان أنفُس ما في الجهاز(الجهاز لمن لا يعرفه عفش الزوجية) وكان هذا الدولاب يُرَضُّ عليه الطواجنُ(والطاخن يُصنع من الفخار يضعون فيه اللبن) وفوق الدولاب على مسمارٍ أكله الصداً تجد حصيرة الجبنة(والحصيرة كانت أفضل وأهم ما في البيت لأنها آلة صناعة الجبن القريش) وعلى السطح وفي ركن بعيدٍ عن تناول الصغار تجد بلاصي الجبنة القديمة، وكنا صغاراً نبدأ يومنا مبكرين، فبعد صلاة الصبح وتناول الإفطار الخفيف وكوب الشاي على المنقذ، أو وابور الجاز يبدأ يوم العمل فنأخذ الحيوانات إلى الحقل، وتتوزع الأدوار، فالكبار يعملون في الحرث والزراعة، والصغار يباشرون تجهيز العلف للحيوانات طول النهار، وتجفيف الحظيرة من الروث(على فكرة... هذا الروث كان مادة الوقود لكانون الطبخ)، (والكانون أشبه اليوم بالبوتجاز سبع شعلات)، وغالباً كان يصحبنا الكتابُ المدرسي وكراسة الواجب التي تشبه أوراقها قراطيس الفلافل المشبعة بالزيت، وبقايا قلم رصاص نستجديه ليتم لنا ما بدأنا كتابته... وحين يختفي قرص الشمس من دائرة الأفق تبدأ رحلة العودة إلى البيت ونقود الحيوانات من خلال ما يسمى بالرواسة(والرواسة لمن لا يعرفها حبل حول عنق الماشية تُسحب منه حين السير وتُرَبط من خلاله بالوتد في الحقل، وفي حظيرة البيت تربط به من خلال حلقة الطواله(الطواله لدى الحيوان... لمن لا يعرفها أشبه بمائدة الطعام لدى البشر أو ترايز السفرة التي يؤكل عليها). وحين وصول البيت بعد المغرب تبدأ الحركة والحياة المتسارعة في البيت، فتبدأ الأم بحلب الماشية ووضع اللبن في طواجن الفخار، وهنا تأتي أهمية دولاب جدتي والحصيرة، حيث تُرَص الطواجن حسب ترتيب الحداثة والقدم، ليترك اللبن الحديث ليروب اللبن أي يتحول بفعل البكتيريا إلى رائبٍ، أي أكثر تماسكا ويشبه الزبادي على أيامنا)، وحين يروب اللبن وقبل النوم تُفصل القشدة ليُصنع منها الزبدة، ويوضع اللبن الرائب في الحصيرة ليتحول إلى جبن نأكل منه، وما فاض من الجبن إما يباع كل أسبوع لأهل المدينة، أو تضعه أمي في البلاصي على السطوح لتتحول الجبن مع قليل من المش والمِلح إلى جبنة قديمة بعد عام أو يزيد قليلا، وهكذا كان البيت أشبه بخلية النحل، عمل وجد طوال النهار، وسمر وحديث بعد العشاء حول لمبة الجاز أو مشاركة المناسبات مع الأقارب والجيران...

وواقع الريف المصري للأسف فقد معناه، ونسي ميناه منذ ما يربو عن ثلاثة عقود، ومع هوجة الانفتاح وظاهرة تأنيث الأسرة المصرية، حيث سفر الأب وبيع الأرض ومن ثم الماشية، فبات دولابْ جدتي إرثاً عظيماً ويحمل تضاريس الزمن، وتعاريج الأيام، وشاهد عيان على غالب طعامنا صيفاً وشتاءً، وكنا حين عودتنا من المدرسة صغاراً، أو من الحقل بعد عناء العمل، وألم البطن من الجوع ونسأل أُمنا الطعام وهي مشغولة بأمر ما... كان جوابها المعتاد: عندك الجبنة والقشدة في الدولاب رُوخٌ كُل، وساعتها ينطق لسانُ حال الضجر والتأفف: كل يوم جبنة وقشدة، وكأنني أرنبُ درس القراءة في الابتدائي الذي كان يتمرد على أمه قائلاً: كل يوم خس وجزر!! وكنا ننتظر بشوق كبير حين نرحل أمي إلى المدينة لتبيع أرطالَ الزبد والقشدة وتعود محملة لنا بخبز المدينة وأقراص الطعمية التي كانت رائحتها أنذاك كفيلة بأن يسيل لها لعابنا عن بُعْد، ناهيك عن طعمها ولذتها... ومع تغير البيت من الطوب الطيني إلى الطوب الأحمر بفعل عوامل السفر، فقد دولابْ جدتي رونقه، وانفضت الأفواه من حوله، وتناقصت الطواجن الخاوية من اللبن، فلا ماشية نحلب منها اللبن، وعادت الجبن والقشدة والزبد طعام القادرين وذوي الدخول المرتفعة، وفقدنا بلاصي الجبنة القديمة، ومنتظر السنوات ليحدث لنا نوعاً من الكفاية المادية أو تفيض بعض الجنيهاً عن الحاجة لنشتري بها عينات زبدة وقشدة وجبنة قديمة رغم أنها لا تشبه بضاعة دولاب جدتي من قريب ولا من بعيد... وظلّ دولابْ جدتي متوقفاً عن العمل لسنوات كثيرة، لكنه يشغل مكانه ويحتفظ بعبق الماضي وذكرياته، وبات يشبه الحلس القديم الذي لا تُرجى منه فائدة فيُحفظ، وتضيّق به حاجات البيت ثم لا يُطرد، إلى أن مللناه وحلّ مكانه دولابُ التلفاز وتراييزة الكمبيوتر، وامتلاً البيت بالأسلاك الموصلة بالكهرباء والنت، والكلّ ينظر في هاتفه أضعاف ما ينظر وينصت لأهله وذويه ومعلميه ومن ثمّ قرأته... ودولابْ جدتي المتوقف عن العمل والخواوي من طواجن اللبن، والحصيرة المترملة على الحائط أشبه بجامعة الدول العربية واجتماعات القمة التي مللناها وباتت تشغل حيزاً من الحديث المعاد والعمل والمقزز كل فترة، نفس الوجوه.. نفس المشاكل... نفس الأمان، ونفس قضية فلسطين وبعض التوصيات حبيسة الأدراج، لكن هذه المرة ورغم العدوان على غزة الذي تجاوز الشهر كانت الجامعة شيطاناً أدمن الخرس، فما سمعنا حتى كلماتها الغثة(ندين ونشجب ونستنكر) لكن لا بأس... فاجتماعاتها دائماً لا يأتي منها أيّ جديدٍ سوي بعض القبلات وكثير النفاق، وزحام العدسات، ونفس الوجوه من كلّ وطنٍ ك دود الأمعاء في كلّ بطنٍ، لا نطيق ذكرهم، فما بالك برؤيتهم والتعايش

معهم!! ومهما حاولنا التخلص منهم ينبتون من جديد... كما يتناسل الدود ذاتياً، ويبقى لوجودهم حكمة يعلمها الله، فله الحمد والمنة على ما كشفه لنا دود الوطن من أشياء كنا نجهلها... وسيظل تناسل الدود مستمراً، وستظلُّ أعلى ثلاث كلمات في تاريخ العرب... ندين ونشجّب ونستنكر، ولو حسبنا تكلفة هذه الكلمات وتكلفة الاجتماعات ستجدها فاقت ميزانيات دول كبرى، بلاها جامعة .. يعني لو كانت مدرسة وألا دار حاضنة مش كنا نقشفنا ووفرنا النفكات؟؟. والآن أسأل... متى نتخلص من إرث جامعة الدول العربية كما تخلصنا من دولاب جدتي الذي لا فائدة منه؟
(يوميات مواطن مفروس من الجامعة العربية).